

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: 13]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

اختلاف الأزمنة
طولاً وقصرًا
دليل على عظمة
الخالق

لما ذكر سبحانه في الآية السابقة اختلاف الدَّوَاتِ الدَّالِّ على بديع صنعِهِ؛ أتبعَهُ في هذه الآية تغييرَهُ المعاني، وجعل ذلك آيةً على بديع قدرته، فقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الآية، ويمكن أن يقال أيضًا: إنه لما كان بين الفلَكِ في البحر والشمس والقمر في مدارهما مناسبة، فإنَّ كلا منهما سارحٌ في تلك العوالم الشَّاسعة؛ أردفه بذكر الليل والنَّهار، وتسخيرِ الشمس والقمر⁽¹⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يُولِجُ﴾: (ولج) أصلٌ يدلُّ على دُخُولِ شيءٍ، يقال: ولَجَ في منزله، وولَجَ البَيْتَ يَلِجُ وُلُوجًا، والوليجة: البِطَانَةُ، ويقال: رجلٌ خُرْجَةٌ وُلْجَةٌ، أي: كثيرُ الخُروجِ والوُلُوجِ⁽²⁾، وبعضهم خَصَّصَ الوُلُوجَ بالدُخُولِ في مُضَيِّقٍ، قال تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]، ومعنى قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ هو التَّنْبِيهُ على ما رَكَّبَ اللهُ ﷻ عليه العالم من زيادة الليل في النَّهار، وزيادة النَّهار في الليل، وذلك بحسب مَطَالَعِ الشَّمْسِ ومغاربها⁽³⁾.

(2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أصلٌ مُطَرَّدٌ مستقيمٌ يدلُّ على احتقار واستدلال، من ذلك قولنا: سَخَّرَ اللهُ ﷻ الشَّيْءَ، وذلك إذا ذلَّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 212، والهردي، حقائق الرُّوح والريحان: 23/ 367.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولج).

(3) الرَّاغِب، المفردات: (ولج).

لأمره وإرادته⁽¹⁾، والتَّسْخِيرُ: سِياقة إلى الغرض المختصَّ قهراً، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحاقة: 13]⁽²⁾، وليس في القرآن من التركيب إلا ما هو من السُّخْرِيَّةِ أو التَّسْخِيرِ⁽³⁾، والمعنى في الآية: ذَلَّلْهُمَا لِمَنَافِعِ خَلْقِهِ وَمَصَالِحِ عِبَادِهِ⁽⁴⁾.

(3) ﴿الْمُلْكُ﴾: (مَلَكٌ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيْءِ، ثُمَّ قِيلَ: مَلَكَ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ يَمْلِكُهُ مَلَكًا، والاسمُ الْمَلِكُ؛ لِأَنَّ يَدَهُ فِيهِ قُوَّةٌ صَحِيحَةٌ⁽⁵⁾، وَالْمَلِكُ يَكُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ: مَلِكٌ هُوَ التَّمْلِكُ وَالتَّوَلَّى، وَمَلِكٌ هُوَ الْقُوَّةُ عَلَى ذَلِكَ، تَوَلَّى أَوْ لَمْ يَتَوَلَّ، وَالْمُلْكُ أَيْضًا هُوَ "التَّسَلُّطُ عَلَى جَمَاعَةٍ، وَالتَّصَرُّفُ فِي أَمْرِهِمْ، فَهُوَ مِنْ إِمْسَاكِهِ بِأَمْرِهِمْ حُكْمًا وَتَدْبِيرًا، وَعَبَّرَ عَنْهُ أَيْضًا بِأَنَّهُ "الْحَقُّ الدَّائِمُ لِلَّهِ"⁽⁶⁾، وَالْمُلْكُ هُنَا جَمِيعُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ أَجْرَامٍ وَسَمَاوَاتٍ وَأَرْضِينَ وَبَشَرٍ وَحَيَوَانٍ وَجَمَادٍ وَغَيْرِهِ، فَكُلُّ شَيْءٍ مُلْكٌ لَهُ سَبْحَانَهُ⁽⁷⁾.

(4) ﴿قِطْمِيرٍ﴾: (قِطْمَرٌ) اختلفَ العلماءُ من أصحابِ المعاجم وغيرهم في معنى القِطْمِيرِ، فَقِيلَ: هُوَ شِقُّ النَّوَاةِ، أَوْ الْقَشْرَةُ الَّتِي فِيهَا، أَوْ الْفَوْفَةُ الَّتِي فِي النَّوَاةِ، وَهِيَ الْقَشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي عَلَى النَّوَاةِ، بَيْنَ النَّوَاةِ وَالتَّمْرَةِ، أَوْ النُّكْتَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ الَّتِي تَنْبِتُ مِنْهَا النَّخْلَةُ⁽⁸⁾، وَيُسْتَعْمَلُ لِلشَّيْءِ الْهَيْنِ النَّزْرِ الْحَقِيرِ، وَيُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، وَلَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَأَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْقِطْمِيرَ هُوَ لِفَافَةُ النَّوَاةِ⁽⁹⁾، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ فِي الْآيَةِ ضَرْبَ الْمَثَلِ بِأَدْنَى شَيْءٍ يُمْتَلِكُ، وَذَلِكَ يَتَحَقَّقُ فِي الْخِيْطِ لِكُونِهِ جِزْمًا مُسْتَقْلَلًا، يُمْكِنُ أَنْ يُعْزَلَ، وَيُؤْخَذَ، أَيْ: يُمْتَلِكُ، وَكَذَلِكَ الْفَوْفَةُ: الْجَبَّةُ، فِي حِينَ أَنَّ الشَّقَّ حَالٌ فِي جِزْمِ النَّوَاةِ لَا يُمْلِكُ وَحْدَهُ، فَالرَّاجِحُ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ فِي الْآيَةِ هُوَ ذَلِكَ الْخِيْطُ الْمَمْتَدُّ فِي شَقٍّ بَيْنَ قُمْعِ النَّوَاةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).

(2) الزاغب، للفردات: (سخر).

(3) جبل، للعجم الاشتقاقِيّ للوُضَل: (سخر).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 279.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).

(6) الزاغب، للفردات: (ملك).

(7) جبل، للعجم الاشتقاقِيّ للوُضَل: (ملك).

(8) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، للحكم، الزبيدي، تاج العروس: (قطمر).

(9) الذرِّ للصون، السمين الحلبي: 9/ 221.

وشقها - وهو ما قاله المفسرون - أو الفوفة، وكلاهما صالحٌ للتعبير عن المعنى المقصود⁽¹⁾.

✽ المعنى الإجمالي:

مُلْكُ الكون كُلِّه
لله وحده لا
شريك له

يُخبر ربُّنا تعالى ذِكْرَهُ أَنَّهُ يُدْخِلُ من ساعات اللَّيْلِ في النَّهَارِ، فيزيد النَّهَارَ بِقَدَرٍ ما نقص من اللَّيْلِ، ويُدْخِلُ من ساعات النَّهَارِ في اللَّيْلِ، فيزيد اللَّيْلَ بِقَدَرٍ ما نقص من النَّهَارِ، وإنَّ هذا بلا شكٍّ لأمرٌ عجيب، وذُلِّلَ الشَّمْسُ والقمرَ نعمةً منه عليكم، يجريان لوقت معلوم، ذلكم الذي فعل هذا هو الله ربُّكم له الملكُ كُلُّه، وإليه وحده الأمرُ، فاعبدوه وحده، ولا تعبدوا غيره؛ لأنَّ الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون شيئاً مهما صَغُرَ؛ فَهُمْ لا يملكون نقيراً ولا قطميراً⁽²⁾.

✽ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

نُكْتَةُ فَصلِ الآية عن سابقتها:

كمال الانقطاع
بينهما

جاءت جملة: «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ» مفصولةً عن الجملة التي قبلها: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»؛ لوجود كمالِ الانقطاع بينهما، وهو اختلافُ الجملتين اختلافاً تاماً، بحيثُ لا تكون بين الجملتين مناسبة في المعنى ولا ارتباط، بل كلُّ منهما مستقلٌّ بنفسه⁽³⁾، فبعد الاستدلال على بديع صنع الله ﷻ في المغايرة بين البحرين العذب والمِلْح؛ انتقل إلى بيان آياته في اختلاف اللَّيْلِ والنَّهَارِ وحركةِ الشَّمْسِ والقمر؛ ليتذكَّرَ النَّاسُ بذلك أَنَّهُ الإلهُ الواحدُ المستحقُّ للعبادة دونَ غيره.

دلالة التعبير بـ «يُولِجُ» دونَ (يدخل):

إبراز الحركة
والدوران في
الإيلاج بين اللَّيْلِ
والنَّهَارِ

أوثر استعمالُ الفعل «يُولِجُ» في قوله تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ» دونَ (يدخل)؛ لتعدد معاني الإيلاج، فيأتي بمعنى الدُّخُولِ

(1) جبل، العجم الاشتقاقِيّ للؤصل: (ملك).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 345/19، نخبة من العلماء، التفسير الليسر، ص: 436.

(3) القزويني، الإيضاح: 107/3.

الَّذِي يَقَابِلُهُ الْخُرُوجُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ: 2]، ويأتي بمعنى العبور أو المرور، والمراد الدُّخُولُ الَّذِي يعقبه خُرُوجٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]، وعلى هذا جاء التَّعْبِيرُ الْقِرَائِيُّ بِالْوَلُوجِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُولِجُ﴾ دُونَ الدُّخُولِ؛ لِأَنَّ الدُّخُولَ يَقْتَضِي الْمَكُوثَ فِيهِ مَدَّةً تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: 58]، أَوْ يَقْتَضِي الْاسْتِقْرَارَ فِيهِ وَعَدَمَ الْخُرُوجِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: 124] بخلاف الولوج، فَإِنَّهُ يَعْنِي الدُّخُولَ فِي الشَّيْءِ مِنْ بَابٍ، وَالْخُرُوجَ مِنْهُ مِنَ الْبَابِ الْمَقَابِلِ لَهُ، فَلَا يَحْمِلُ مَعْنَى الْمُكُوثِ وَالْاسْتِقْرَارِ، بَلْ يَبْقَى بِقَدْرِ مَا يَسْتَعْرِقُهُ مِنْ بَابِ الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ، وَلَمَّا كَانَ سِيَاقُ الْآيَةِ يَتَحَدَّثُ عَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَدُخُولِ كُلِّ مِنْهُمَا فِي الْآخِرِ دُخُولًا لَا اسْتِقْرَارَ فِيهِ؛ عَبَّرَ بِالْفِعْلِ ﴿يُولِجُ﴾، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ عِبَارَةً عَنْ أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ اللَّيْلِ؛ زَادَ فِي النَّهَارِ، فَكَأَنَّهُ دَخَلَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ مَا نَقَصَ مِنَ النَّهَارِ يَدْخُلُ فِي اللَّيْلِ، فَيَنْقُصُ الْأَوَّلُ، وَيَزِيدُ الثَّانِي، كَمَا فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ وَالصَّيْفِ⁽¹⁾.

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

دَلَّ التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ ﴿يُولِجُ﴾ عَلَى تَجَدُّدِ هَذَا الْفِعْلِ مِنْ دُخُولِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ، وَدُخُولِ سَاعَاتِ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ، وَهَذَا وَاضِحٌ فِي تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ طَوْلًا وَقَصْرًا فِي الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ السَّنَةِ.

بلادة الصورة البيانية في الإبلاج:

تَضَمَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ﴾ صُورَةً بَيَانِيَّةً بَدِيعَةً مِنْ نَوْعِ الْاسْتِعَارَةِ، فَإِبْلَاجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ: غَشْيَانُ ضَوْءِ النَّهَارِ

الدَّلَالَةُ عَلَى
التَّجَدُّدِ
وَالْاسْتِمْرَارِ فِي
تَعَاقُبِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ

تجسيد معنى
الإدخال
في صورة
محسوسة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 434، والهرري، حقائق الرُّوح والزَّيْحَانِ: 23/ 367، عبد الجبار فتحي، الفروق اللُّغَوِيَّة، ص: 523.

على ظلمة الليل، وإيلاج النهار في الليل: غشيان ظلمة الليل على ما كان من ضوء النهار، فالمولج هو المختفي، فإيلاج الليل انقضاؤه، واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة؛ لأن تقلص ظلمة الليل يحصل تدريجاً، وكذلك تقلص ضوء النهار يحصل تدريجاً، فأشبه ذلك إيلاج شيء في شيء؛ إذ يبدو داخلًا فيه شيئاً فشيئاً⁽¹⁾.

نكتة إضمار الفاعل في الآية:

أضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ﴾؛ لكونه معلوماً أنه لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه، فذلك مختص به وحده، ولا ينصرف ذهن السامع عند ذكر الآيات الكونية من الليل والنهار، والشمس والقمر إلا إلى الخالق القادر سبحانه، وأيضاً لنكتة الإيجاز فقد تقرر الفاعل في آية أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 61].

دلالة (أل) في ﴿اللَّيْلُ﴾ و﴿النَّهَارِ﴾:

جاء لفظا ﴿اللَّيْلُ﴾ و﴿النَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ﴾ معرفتين بـ (أل) الدالة على تعريف الجنس المقتضي للعموم، ويسمّيها البلاغيون (لام الحقيقة)، وتسمى أيضاً لام العهد الذهني⁽²⁾، وهي التي تبين الحقيقة بقطع النظر عن الأفراد، وهي تعرف حقيقة ذهنية يُراد بها فردٌ مبهمٌ من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته في الذهن، لاشتمال الحقيقة عليه، كما في قوله: ﴿أَن يَأْكُلَهُ الذَّبُّ﴾ [يوسف: 13]، وقولهم: ادخل السوق⁽³⁾.

بلاغة المطابقة بين ﴿اللَّيْلُ﴾ و﴿النَّهَارِ﴾:

يتضمن قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ﴾ طباقاً بديعاً بين

اختصاص الله
بأمور الكون
وحده

دلالة الجنس
على الحقيقة
بقطع النظر عن
الأفراد

توضيح الكلام
بالجمع بين
الضدين في
المقام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 315 / 17.

(2) الخطيب القزويني، الإيضاح: 21 / 2.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 263 / 18.

لفظتي «الَّيْلَ» و«النَّهَارَ»، وهو محسنٌ معنويٌّ يوضح اختلافَ زمنيَّهما، وكونهما من آياتِ الله العظيمة، فبين تقابلِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ وتخالُفهما تضادُّ يثير الذَّهْنَ، ويجذبُ الانتباهَ، ويزيد الكلامَ حُسْنًا وطرافةً، كما يقوِّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايز الأشياءُ.

سرُّ تقديم «الَّيْلَ» على «النَّهَارَ» في الآية:

تقدَّمَ «الَّيْلَ» على «النَّهَارَ» في قوله تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ»؛ لنكَّتهِ الاهتمامِ به، فأمرُهُ أعجبُ في كَيْفِيَّةِ غَشْيَانِ ظُلُمَتِهِ تلكَ الأنوارِ النَّهارِيَّةِ، وكذلك هو أسبق؛ لأنَّ الظُّلْمَةَ هي الحالةُ السَّابِقَةُ للعوالمِ قبلَ خلقِ النُّورِ في الأجسامِ النَّيِّرَةِ، فالظُّلْمَةُ عَدَمٌ والنُّورُ وجودٌ، وكانت الموجوداتُ في ظُلْمَةٍ قبلَ أن يخلقَ اللهُ الكواكبَ النَّيِّرَةَ، ويوصلَ نورَها إلى الأجسامِ الَّتِي تستقبلُها كالأرضَ والقمرَ، وقد جعلَ بعضُ العلماءِ تقديمَ اللَّيْلِ لأهمِّيَّتهِ في العبادة، فاللَّيْلُ لخدمةِ المولى ﷺ، والنَّهَارُ لخدمةِ الخلقِ، ومعارِجُ الأنبياءِ ﷺ كانت باللَّيْلِ، واللَّيْلُ هو الأصلُ، والنَّهَارُ فرعٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحرفِ «فِي»:

استعملَ حرفُ الجرِّ «فِي» الدَّالُّ على الظَّرْفِيَّةِ الزَّمَنِيَّةِ في قوله تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ»؛ لأنَّ كلاً من اللَّيْلِ والنَّهَارِ ظرفانِ زمنيَّانِ لزيادةِ ساعاتِ اللَّيْلِ في النَّهَارِ، وزيادةِ ساعاتِ النَّهَارِ في اللَّيْلِ.

بلادةُ المقابلةِ في الآية:

يظهرُ في قوله تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ» مقابلةً إيلاجِ النَّهَارِ في اللَّيْلِ؛ لإيلاجِ اللَّيْلِ في النَّهَارِ، والنُّكَّتهُ في ذلك: تتميمُ إظهارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ على خَلْقِ الأمورِ المتضادَّةِ، وعدمُ لزومِ طريقةٍ واحدةٍ كقدرةِ الصُّنَّاعِ من البشرِ، وبأنَّه سبحانه قادرٌ على تغييرِ أحوالِ ما هو أعظمُ حالاً من الإنسانِ، وذلك بتغييرِ أحوالِ

للعناية
والاهتمام به
لأنَّه الأصل

اللَّيْلُ والنَّهَارُ
ظرفانِ زمنيَّانِ
لزيادةِ
والنقصانِ

إظهارُ القدرةِ
الإلهيَّةِ على
خَلْقِ الأمورِ
المتضادَّةِ

الأرض وأفقيها بين ليل ونهار في كل يوم وليلة، تغييراً يُشبه طُروُّ الموت على الحياة في دخول الليل في النهار، وطُروُّ الحياة على الموت في دخول النهار على الليل، وبأنه سبحانه قادرٌ على أعظم من ذلك⁽¹⁾.

بلادة الإدماج في الآية:

تضمن قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ فناً من فنون البلاغة يُسمى (الإدماج)، وحقيقته: أن يتضمن الكلام معنيين: معنى مصرحاً به، ومعنى كالمشار إليه⁽²⁾، فأدمج النظم القرآني في ذكر الليل والنهار تشبيهاً للكفر بالليل والإسلام بالنهار؛ لأنَّ الكفر ظلامٌ وضلال، فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة، ولأنَّ الإيمان نورٌ يتجلَّى به الحقُّ والاعتقادُ الصحيح، فصاحبه كالذي يمشي في النهار، ففي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل، أي: ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشرار، ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار، أي: دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار.

سرُّ الجمع بين الإيلاجين لليل والنهار:

في الجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، إيماءٌ إلى تقلُّب أحوال الزمان، فقد يصير المغلوب غالباً، ويصير الغالب مغلوباً، وفيه إدماجُ التنبيه بأنَّ العذاب الذي استبطأه المشركون منوطٌ بحلول أجله، وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار، ونهار في ليل⁽³⁾.

نكتة عطفِ تسخير ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ على الإيلاج:

عطفَ قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ على ما قبله من إيلاج الليل في النهار والعكس؛ لتمام المناسبة بينهما، فبفضل الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21 / 184.

(2) العسكري، الصنائع، ص: 423، وأحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية: 1 / 83.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17 / 315.

إدماج ذكر
المسلمين
والكفار في ذكر
الليل والنهار

تعاقب الليل
والنهار دليل
على تقلُّب الزمان

ارتباط الليل
والنهار بحركة
الشمس والقمر

سبحانه في تسخير الشمس والقمر تعلمُ حكمة الإيلاج، وبحركة النّيرين تختلف الأوقات، وتظهر الفصول الأربعة التي تتعلّق بها المصالح، والأمور المهمّة⁽¹⁾.

دلالة التعبير بالتسخير دون الخلق:

أثر القرآن الكريم التعبير بالتسخير دون الخلق في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾؛ لأنّ التسخير معناه التذليل العظيم لهما، فالبشر لا يستطيعون التّحكّم فيهما؛ لذلك كان من فضل الله سبحانه أنّه جعلهما طائعين لما يُراد منهما من المنافع، ولأنّ التسخير يحمل في طيّاته معنى الخلق، فقد يُخلق الشيء، ولا يُسخّر، فلا يستطيع الإنسان أن ينتفع به؛ لذلك كان التعبير بالتسخير أوفق لمعنى الآية.

نكتة العدول إلى الماضي ﴿وَسَخَّرَ﴾:

عدّل في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ من الفعل المضارع ﴿يُولِجُ﴾ إلى الماضي ﴿وَسَخَّرَ﴾ لنكتة بلاغيّة، وهي أنّ إيلاج أحد المولّين في الآخر متجدّد حيناً فحيناً، فناسبه المضارع الدالّ على التّجدّد، وأمّا تسخير النّيرين؛ فأمر لا تجدد فيه، وإنّما المتعدّد والمتجدّد آثاره، فناسبه الماضي الدالّ على التّحقّق⁽²⁾.

دلالة (أل) في ﴿الشَّمْسُ﴾ و﴿وَالْقَمَرُ﴾:

جاء لفظا ﴿الشَّمْسُ﴾ و﴿وَالْقَمَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ معرّفين بـ (أل) الدالّة على تعريف العهد، فهذان اللفظان يُطلقان على نجمين معروفين من بين سائر النّجوم، وقد ذهب ابن عطية إلى أنّها لا تفيد التّعريف⁽³⁾، باعتبار أنّ كلّ واحدٍ منهما لا نظير معهود له من جنسه.

تسخير الشمس
والقمر لمنافع
الناس

تجدّد الإيلاج
بين الليل والنّهار
دون التسخير

شهرة الشمس
والقمر تغنيهما
عن التّعريف

(1) الهرّي، حقائق الرّوح والزّيجان: 23 / 367.

(2) الألوسي، روح المعاني: 11 / 353.

(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4 / 434.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ تَسْخِيرِ الشَّمْسِ عَلَى تَسْخِيرِ الْقَمَرِ:

الشَّمْسُ هي
الأصل والأهم،
والْقَمَرُ فرعٌ عنها

تَقَدَّمَ ذِكْرُ «الشَّمْسِ» عَلَى «الْقَمَرِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ»؛ لِأَهَمِّيَّةِ الشَّمْسِ وَفَضْلِهَا، فَهِيَ الْأَصْلُ بِضِيَائِهَا وَدَفْنِهَا وَمَنَافِعِهَا لِلنَّاسِ، وَالْقَمَرُ فَرَعٌ عَنْهَا، وَهِيَ الْأَكْبَرُ جَرْمًا، وَالْأَهَمُّ فِي حِسَابِ الْأَوْقَاتِ، فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ، وَتُعْرَفُ سَاعَاتُهَا، فَإِنَّ شُرُوقَهَا وَغُرُوبَهَا يُحَدِّدُ عِدَّةَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَدَرَجَاتِهِمَا، وَاخْتِلَافَ أَقَالِيمِ الْأَرْضِ فِيهَا طَوْلًا وَقِصْرًا، حَتَّى يَقْلُ النَّهَارُ فِي بَعْضِ الْأَرْضِ، وَيَكُونُ الْأَكْثَرُ لَيْلًا، وَيَتَنَاسَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي بَعْضِ الْأَرْضِ، وَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ مَنَاطِقُ الْأَرْضِ عَلَى حَسَبِ تَسَلُّطِ نُورِهَا وَأَشْعَتِهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَتَكُونُ الْفُصُولُ الْأَرْبَعَةُ مِنْ صَيْفٍ وَخَرِيفٍ وَشِتَاءٍ وَرَبِيعٍ، فَهِيَ أَعْلَى مَرْتَبَةٍ مِنَ الْقَمَرِ⁽¹⁾.

سِرُّ تَخْصِيصِ «الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» بِالذِّكْرِ:

الشَّمْسُ والقمر
أشرف الكواكب

النَّاظِرُ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَمُومًا، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي مَقَامِ التَّسْخِيرِ، يَجِدُ ذِكْرَ «الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» فَقَطْ، دُونَ غَيْرِهِمَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ؛ لِأَنَّهَا أَظْهَرُ الْكَوَاكِبِ وَأَشْرَفُهَا وَأَعْظَمُهَا فِي مَنَافِعِ النَّاسِ، وَمَا عَادَاهَا يَدْخُلُ فِيهِمَا مِنْ بَابِ أُولَى.

سِرُّ فَصْلِ قَوْلِهِ: «كُلٌّ يَجْرِي»:

جريانُ الشَّمْسِ
والقمر فرعٌ عن
تسخيرهما

فُصِّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى» عَمَّا قَبْلَهُ؛ لَوْجُودِ كِمَالِ الْإِتِّصَالِ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ اتِّحَادُ الْجُمْلَتَيْنِ اتِّحَادًا تَامًّا وَامْتِزَاجًا مَعْنَوِيًّا، بِحَيْثُ تَنْزِلُ الثَّانِيَّةُ مِنَ الْأُولَى مَنْزِلَةً نَفْسِهَا⁽²⁾، فَقَدْ وَقَعَتْ جُمْلَةً: «كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى» بَيَانًا لِتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ «كُلٌّ» وَتَنْكِيرِهِ:

بلاغَةُ إيجازِ
الحذفِ بتنوينِ
العوضِ

عُبِّرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ

(1) أَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 5/ 2601.

(2) الْقَزْوِينِي، الْإِبْضَاحُ: 3/ 108.

مُسَمًّى بلفظ **كُلٌّ**، وهو من أفاضل العموم، والأصل فيه الإضافة، وقد جاء منوناً بتووين العوض عن المضاف إليه، والتقدير: كلٌّ من الشمس والقمر يجري إلى أجلٍ، وهو من إيجاز الحذف⁽¹⁾.

بلاغة الاستعارة في الفعل **يَجْرِي**:

تَظْهَرُ بلاغة الاستعارة في التعبير بالفعل **يَجْرِي** في قوله تعالى: **كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى**؛ لأنَّ معناه المشي السريع، وقد استُعير هنا لانتقال الشمس في فلكها، وانتقال الأرض حول الشمس، وانتقال القمر حول الأرض؛ تشبيهاً بالمشي السريع؛ لأجل شسوع المسافات التي تُقَطَّع في خلال ذلك⁽²⁾.

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

جاء الفعل **يَجْرِي** بصيغة المضارع؛ للدلالة على التَّجَدُّد والاستمرار في الحركة لكلٍّ من الشمس والقمر، وقد بيَّن القرآن ذلك بقوله: **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴿٥٠﴾ [يس: 40].

سرُّ التعبير باللام في قوله: **لِأَجَلٍ مُّسَمًّى** (إلى):

جاء التعبير القرآني باللام دون (إلى) في قوله تعالى: **كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى**؛ لوجود فرقٍ بينهما، فاللام معناها الاختصاص، أمَّا (إلى)؛ فمعناها انتهاء الغاية، لكنَّ بعضَ العلماء ذهب إلى أنَّ اللام هنا بمعنى (إلى) في الدلالة على الانتهاء، بمعنى أنَّ الجري لمدةٍ معيَّنة هي نهاية الدنيا ومجيء القيامة، أو لمدةٍ محدَّدة يُتِمُّ فيها دورانه، فالشمسُ تُتِمُّ دورتها في سنةٍ، والقمرُ يَتِمُّ دورته في شهر⁽³⁾، وهذا القول غير دقيق؛ لأنَّه جعلهما بمعنى واحد من باب

استعارة الجري
للدلالة على
طول حركة
الشمس والقمر

دوام جريان
الشمس والقمر

دقَّة النظم
القرآني في
اختيار حروف
اللعاني

(1) الهرري، حقائق الرّوح والزّبحان: 23 / 367.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21 / 185.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3 / 180.

التعاقب، ومما يؤكد ذلك إنكار الزمخشري التعاقب بين هذين الحرفين، وأغلظ في النكير على القائلين به، واختار أن يكون معنى اللام هنا الاختصاص، فقله: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه: يجري لإدراك أجلٍ مُّسمًى، فتجعل الجري مختصاً بإدراك أجلٍ مُّسمًى؛ وذلك لأن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر، وهذا المعنى مقبول غير نابٍ به موضعه⁽¹⁾، وقد حاول الطيبي الجمع بين القولين بأن مآلها واحد، وأن الغرض منهما الغاية، وهو حاصل بهما؛ لأن الغايات يجمعها معنى انتهاء الغاية والعلّة⁽²⁾، والبلاغة تقتضي التمييز بين الحرفين؛ لأن القرآن استعمل كل حرف في موضعه، ففي سورة لقمان جاء التعبير بـ ﴿إِلَى﴾ [لقمان: 29] في قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: 29]، وهذا دليل على التفريق بينهما، ويكون اختيار اللام هنا دون (إلى)؛ للإشارة إلى أن هذا الجري يكون لعلّة زمنية لا تتخلف.

نُكْنَةُ تَنْكِيرِ ﴿لِأَجَلٍ﴾:

جاء لفظ ﴿لِأَجَلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُنْكَرًا، والغرض من تنكيره الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتعظيم والتفخيم، فإن من أراد أن يعظم شيئاً أبهمه بحيث لا يكتنه وصفه، وتذهب النفس فيه كل مذهب، وتشوق إلى معرفة خبره وتفصيله.

سُرُّ التَّعْبِيرِ بِالْأَجَلِ دُونَ الْوَقْتِ:

آثر القرآن الكريم التعبير بالأجل دون الوقت في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ لأنَّ الأجل أخص من الوقت، فله بداية وله نهاية، بخلاف الوقت فهو عامٌّ، وآيات القرآن تُظهر أنَّ الأجل

إبهام أجَلِ
البعث على
جميع الخلق

الوقت ممدود
والأجل محدود

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 502.

(2) الطيبي، فروع الغيب: 12/ 314.

محدود، منها قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: 38]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: 235]، وغير ذلك من الآيات.

نُكْتَةُ وَصِفِ الْأَجَلِ بـ ﴿مُسَمًّى﴾:

وُصِفَ الْأَجَلُ بِأَنَّهُ ﴿مُسَمًّى﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إشارة إلى أَنَّ لهذا النَّظَامِ الشَّمْسِيِّ أمدًا يَعْلَمُهُ اللَّهُ، فإذا انتهَى ذلك الْأَمَدُ؛ بَطُلَ ذلك التَّحَرُّكُ والتَّنَقُّلُ، وهو الوقتُ الذي يُؤَدِّنُ بانقراضِ الْعَالَمِ، فهذا تذكيرٌ بوقتِ الْبَعْثِ⁽¹⁾، والمُرَادُ بـ (الْأَجَلِ) هو قِيَامُ السَّاعَةِ، وقيل: أَمَادُ اللَّيْلِ وَأَمَادُ النَّهَارِ، فيكون على هذا اسْمُ جنسٍ، و(المُسَمًّى): أصله المعروف باسمه، وهو هنا كنايةٌ عن الْمُعَيَّنِ الْمُحَدَّدِ؛ إذ التَّسْمِيَةُ تستلزم التَّعْيِينَ والتَّمْيِيزَ عن الاختلاط، وفي التَّعْيِيرِ به إشارةٌ إلى أَنَّهُ معلومٌ مُعَيَّنٌ، ولا ينبغي الجهلُ به.

ساعةُ البعثِ
معَيَّنةٌ لا يعلمها
إِلَّا اللَّهُ سبحانه

نُكْتَةُ بِنَاءِ ﴿مُسَمًّى﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله:

بُنِيَ لفظُ ﴿مُسَمًّى﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله؛ لظهور المعنى وعدم خفاءه، فمعلومٌ أَنَّ أَجَلَ هذه الدُّنْيَا بأجرامها قد سَمَّاهُ، وحدَّده خالقها ﷻ وحده، ولم يُطْلَعْ أحدًا مِنَ الْخَلْقِ عليه، لا مَلِكٌ مُّقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ.

تَرْكُ التَّصْرِيحِ
بالمعلومِ جَائِزٌ
وبليغٌ

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

فُصِّلَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ على سبيل الاستئنافِ الْبَيَانِيِّ، فَإِنَّهُ سبحانه لما ذَكَرَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تدلُّ على قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ، من إرسالِ الرِّيحِ، والإيجادِ من ترابٍ وما عُطِفَ عليه، وإيلاجِ اللَّيْلِ في النَّهَارِ، وتسخيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ؛ أشار إلى أَنَّ الْمُتَّصِفَ بهذه الأفعالِ الْعَجِيبَةِ هو اللَّهُ الْعَظِيمُ ﷻ⁽²⁾.

مَزِيدٌ تَعْرِيفٍ
الْخَالِقِ ﷻ
بِدلائلِ قُدْرَتِهِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 434، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 185.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 21.

تعظيم شأن
الخالق سبحانه
وتشريف قدره

كمال التنزيه
في منع بعض
الأوجه الإعرابية

دلالة التعبير باسم الإشارة الجمعي للبعيد:

وردت الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ باسم ﴿ذَلِكُمْ﴾ المخصّص للبعيد، والنُّكْة في ذلك أن الأصل في الإشارة أن تكون إلى محسوس، فلما كان يستحيل إحساسه تعالى بالحواس في الدنيا؛ أشار النظم الكريم إليه إشارة بعيد، مع أنه أقرب من كل قريب؛ للإيذان بغاية العظمة، أي: ذلك العظيم الشأن الذي أبدع هذه الصنائع البديعة من أول السورة إلى هنا، من إيلاج الليل في النهار وبالعكس، وتسخير الشمس والقمر⁽¹⁾.

الموقع النحوي للاسم الكريم ﴿اللَّهُ﴾:

تعددت الأوجه الإعرابية في الاسم الكريم ﴿اللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، فيجوز أن يكون خبراً للمبتدأ ﴿ذَلِكُمْ﴾، و﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر ثانٍ، أو نعت لله⁽²⁾، وقال الزمخشري: "ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفةً لاسم الإشارة، أو عطف بيان، و﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر، لولا أن المعنى يأباه"⁽³⁾، وردّ عليه أبو حيان بقوله: "أما كونه صفةً؛ فلا يجوز؛ لأن الله علّم، والعلّم لا يوصف به، وليس اسم جنس كالرجال، فتخيّل فيه الصفة، وأما قوله: "لولا أن المعنى يأباه"، فلا يظهر أن المعنى يأباه؛ لأنه يكون قد أخبر بأنّ المشار إليه بتلك الصفات والأفعال المذكورة ﴿رَبُّكُمْ﴾، أي: مالكم، أو مصلحكم، وهذا معنى لائق سائغ"⁽⁴⁾، وأفاد الطيبي أن ذلك يُشار به إلى ما سبق؛ للدلالة على جدارة ما بعده بسبب الأوصاف السابقة، ولو كان وصفاً أو بياناً؛ لكان المشار إليه ما بعده، وأما جعله عطف بيان؛ ففيه تخيّل للشركة، ألا ترى إذا قلت: ذلك الرجل سيّدك، ففيه نوع شركة؛ لأنّ (ذا) اسم مبهّم تمّ تبينه⁽⁵⁾.

(1) الهرري، حقائق الروح والزيحان: 368 / 23.

(2) الدّر للصون، السمين الحلبي: 220 / 9.

(3) الزمخشري، الكشاف: 605 / 3.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 21 / 9.

(5) الطيبي، فتوح الغيب: 629 / 12.

دلالة التعبير بلفظ الرُّبُوبِيَّة:

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ بلفظ الرُّبُوبِيَّة دون سواه من أسماء الله وصفاته؛ لاختصاص الرَّبِّ سبحانه بإيجاد الآيات الكونيَّة المشاهدة، من تعاقب الليل والنَّهار، وتسخير الشَّمس والقمر، وكذلك لما في وصف الرُّبُوبِيَّة من الدَّلالة على الشَّفقة بالمربوب، ومحبة الخير له، فهو تذكير لعباده بنعمة الإيجاد والإمداد، وهو معنى الرُّبُوبِيَّة، وتوطئة للتَّسجيل عليهم بكفران نعمته، ونسبتها للأوثان.

إيجاد الآيات
الكونيَّة من
خصائص
الرُّبُوبِيَّة،
ومستلزمة
لتوحيد الألوهيَّة

دلالة الإضافة والتَّعريف في: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾:

دلَّت الإضافة على التَّشريف والقرب، فهو ربُّكم الواحد الذي له الخلق والأمر، فاعبدوه، ولا تعبدوا غيره، وفي هذا تعريضُ بالمشرِّكين الذين عبدوا الأصنام⁽¹⁾، ودلَّ تعريف الطرفين في قوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ على الحصر، والمعنى: أنه ﷻ خالقُ الأفعال المذكورة وحده، فهو المستحقُّ للعبادة دون غيره.

الإضافة
للتَّشريف
والقرب،
والتَّعريف
للحصر

دلالة اللام في قوله: ﴿لَهُ﴾:

ورد التَّعبير باللام من ﴿لَهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ دون غيرها لتعدد معانيها، فمنها الملك، فإنه سبحانه خالق كلِّ شيء، فكان مالكا له؛ إذ الخالق مالك، وذهب بعض العلماء إلى أنها للاختصاص، ويُرجَّح أنَّ فيه تقييلا للاشتراك، وجعلها ابن هشام أيضًا للاستحقاق، فإنَّ لامَ الاستحقاق هي الواقعة بين معنى وذات⁽²⁾، كما في هذه الآية.

الكون كُلُّه بما
فيه ملكٌ لخالقه
سبحانه

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ شِبْهِ الْجُمْلَةِ ﴿لَهُ﴾:

تَقَدَّمَ شِبْهُ الْجُمْلَةِ في قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ لإفادَةِ الحصر،

الملكُ لله وحده
لا لغيره

(1) البقاعي، نظم الدرر: 425/13، وابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 202/04.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 275.

أي: المَلِكُ لله وحده لا لغيره، وأما مُلْكُ ملوكِ الدُّنْيَا؛ فهو لنقصه وتعرُّضه للزوال بمنزلة العَدَمِ، وفي حديث القيامة: «ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟»⁽¹⁾، فاللَّهُ سبحانه هو الْمَلِكُ الْحَقُّ، وفي هذا الحصر إبطالُ لادِّعاء المشركين الألوهية في أوثانهم⁽²⁾.

دلالة (أل) في «الْمَلِكُ»:

استغراقُ ملكِ
الخالقِ سبحانه
لجميعِ السَّمَاوَاتِ
والأَرْضِ وما فيهما

جاء لفظُ «الْمَلِكُ» في قوله تعالى: «لَهُ الْمُلْكُ» معرِّفاً بـ (أل) الدَّالَّةُ على استغراقِ جنسِ الْمَلِكِ، فجميعُ مُلْكِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما فيهما، ومطلقُ التَّصَرُّفِ في الأولى والآخرة له تعالى، وليس لغيره مُلْكٌ أصلاً، وكلُّ من هذا شأنه؛ فهو متفردٌ بالألوهية والرُّبوبيَّة⁽³⁾.

سرُّ التعبيرِ بِالْمَلِكِ دونَ الملكِ:

عمومُ الْمَلِكِ في
سياسةِ البلادِ
والعبادِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ «الْمَلِكُ» دونَ (الملك) في قوله تعالى: «لَهُ الْمُلْكُ»؛ لأنَّ مضمومَ الميمِ خصَّه الاستعمالُ بِمَلِكِ البلادِ ورعايةِ النَّاسِ، وفيه جاء قوله تعالى: «تُوَفِّي الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكُ مِمَّنْ تَشَاءُ» [آل عمران: 26]، وصاحبه: مَلِكٌ، بفتح الميم وكسر اللّام، وجمعه: مُلُوكٌ⁽⁴⁾؛ بخلاف الْمَلِكِ فلا يتأتَّى منه سياسةُ النَّاسِ وحُكْمُهُم.

دلالةُ تعدُّدِ الإعرابِ لقوله: «لَهُ الْمُلْكُ»:

تنويعُ الوجوهِ
الإعرابيةِ، فيه
تكثرُ للمعاني
الدَّلَالِيَّةِ

تعدَّدتِ الأقوالُ في موقعِ جملةِ «لَهُ الْمُلْكُ» في قوله تعالى: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ»، فيحتملُ أن تكونَ الجملةُ: «لَهُ الْمُلْكُ» خبرًا ثالثًا للمبتدأ «ذَلِكُمْ»، بمعنى: أن الله عظيمُ الشَّانِ، المشارُ إليه بتلك الصِّفات والأفعال المذكورة هو الرَّبُّ، وله مطلقُ الْمَلِكِ والتَّصَرُّفِ، كما يمكنُ أن تكونَ كلامًا مبتدأ في مقابلةِ قوله

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (2787)، ومسلم في صحيحه، برقم: (4534).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 336 / 23.

(3) القنوني، الحاشية على تفسير البيضاوي: 38 / 16.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 336 / 23.

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾؛ للدلالة على تفرده تعالى بالألوهية والرُبوبيَّة (1).

دلالة التعبير بالواو في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾:

دلَّ التعبيرُ بالواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ على سبيل المقابلة لقوله تعالى قبله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، فبعد أن صرَّح سبحانه بأنه خالقُ الخلائق، ومُدبِّرُ الأحوالِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، وأنه الرَّبُّ الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ والسُّلْطَانُ وحده، عطف عليه التَّصريحُ بأنَّ أصنامهم لا يملكون من الملك شيئاً، ولو حقيراً، ويحتمل أن يكونَ كلاماً مستأنفاً؛ للدلالة على تفرده بالألوهية والرُبوبيَّة، وتكون جملة ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ مبينة لعلَّ ما تضمَّنَه قوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ من التَّفرُّد بالألوهية والرُبوبيَّة (2).

دلالة التعبير بالاسم الموصول وصلته:

عُبرَ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ بالاسم الموصول (الذين) وصلته ﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾، دون الاسم الظاهر (الأوثان)؛ لتقريع المشركين بما في حيز الصِّلة، وهو دعاء غير الله والإشراك به الأصنام العاجزة عن أدنى الأمور، فذمَّهم بذلك من أوَّل الأمر، كما ذمَّهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5]، وفي التعبير باسم الموصول لفت انتباه المشركين إلى عجز الأصنام عن أن تدفع الضرَّ عن نفسها، فضلاً أن تدفعه عن غيرها.

نكتة التعبير عن الأوثان بضمير جمع العقلاء:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ذِكْرُ الأوثان التي يعبدُها المشركون من دون الله تعالى

المقابلة بين
ملكِ المستحقِّ
للرَّبوبيَّة، وبين
عجز الأوثان
الشَّركيَّة

ذمُّ المشركين
بدعاء غير ربِّ
العالمين

ظنونُ المشركين
الجهلاء في
إحقاق الأوثان
بالعقلاء

(1) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 148 / 7.

(2) القونوي، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16 / 39.

بضمير جمع العقلاء؛ جرياً على زعمهم وتفكيرهم، مع أنها جمادٍ غيرُ أحياءٍ، فضلاً عن أن يكونوا عاجزين⁽¹⁾، وهذا من باب استمالة الخصم لكي يراجع الأمر في نفسه، ويتبين له أنه على الباطل، وليس على الحق، كما يمكن أن يكون ذلك من باب التشبيه بالعقلاء لما نسبوا إليها بعض ما يُنسب للأحياء كالمُلك، وقال بعضهم: إنه قد خرج مخرج التغليب ليشمل الكلام عبدة الأصنام وعبدة الملائكة وعيسى ﷺ، وغيرهم من المُقربين⁽²⁾.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿تَدْعُونَ﴾ فِي الْآيَةِ:

أَوَثَرَ التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ ﴿تَدْعُونَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ لَأَنَّ الدُّعَاءَ يُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهِ الدُّعَاءُ وَالْعِبَادَةُ، وَلَمَّا كَانَ الدُّعَاءُ عَامًّا يَشْمَلُ الْأُمُورَ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْعِبَادِيَّةَ؛ عَبَّرَ بِالدُّعَاءِ مِنْ بَابِ الْعُمُومِ، وَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ هُنَا؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ الْعِبَادَةُ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ دُعَاءَ الْمَعْبُودِ، فَالدُّعَاءُ يُطْلَقُ عَلَى سُؤْلِ الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ حَاجَتَهُ، وَهُوَ ظَاهِرٌ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ، وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَنْ طَرِيقِ الْكُنْيَاةِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَخْلُو مِنْ دُعَاءِ الْمَعْبُودِ بِنَدَاءٍ تَعْظِيمِيٍّ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَهَذَا إِطْلَاقٌ أَقْلُ شَيْعُوًّا مِنَ الْأَوَّلِ، وَقَدْ جَاءَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ مَا فِيهِ صِلَاحِيَّةٌ مَعْنَى الدُّعَاءِ لَمَّا يَلَائِمُ الْمَعْنَيْنِ فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»⁽³⁾، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [إغافر: 60]، فَإِنَّ قَوْلَهُ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» يَقْتَضِي اتِّحَادَ الْحَقِيقَتَيْنِ، فَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ؛ كَانَتِ الْعِبَادَةُ هِيَ الدُّعَاءُ لَا مُحَالَةً⁽⁴⁾، وَمِمَّا يُذَكِّرُ فِي سِرِّ التَّعْبِيرِ

الدُّعَاءُ هُوَ
الْعِبَادَةُ،
وَالْعِبَادَةُ هِيَ
الدُّعَاءُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5029 / 9.

(2) الألوسي، روح المعاني: 354 / 11.

(3) أخرجه الترمذی في سننه، برقم: (2969)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 181 / 24.

بقوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ (تعبدون) الإنكار على المشركين في دعائهم الأصنام، وهذا الإنكار يُلْزَمُ منه إنكار عبادتهم لها أصلاً.

دلالة المضارع في قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾:

عَبَّرَ بالمضارع ﴿تَدْعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ دون غيره من الأزمنة؛ لما يُفِيدُهُ المضارعُ من تَكَرُّرِ الحدثِ وتَجَدُّدِهِ واستمراره⁽¹⁾، وفي ذلك دلالةٌ على تَكَرُّرِ دعائهم لآلهتهم الباطلة، وتَجَدُّدِ ذلك منهم دونَ أن يحصلوا منها على أيِّ نفعٍ أو دفعٍ، وممَّا يُذَكِّرُ في سرِّ التَّعبيرِ بالمضارع: تصوُّرُ صورةِ المشركين واستحضارها في عُكوفهم على دعوة الأصنام.

دلالة حذف المفعول به:

حُذِفَ المفعولُ به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ للدلالة على بُطلانِ كُلِّ ما يُعْبَدُ من دونِ الله، وعدمِ استحقاقه للذكر؛ لحقارته وللتَّهوين من شأنه.

دلالة التعبير بـ ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾؛ لدلالتهَا على معنى الابتداء، ويكون المرادُ أنَّهم مبتدئون من جانبٍ غيرِ جانبِ الله، فهم يعبدون آلهةً مبتدئين إياهم من ناحيةٍ غيرِ الله؛ لأنَّهم حين يعبدونهم قد شُغِلُوا بعبادتهم، ففَرَّطُوا في عبادةِ الله المُستَحِقِّ للعبادة، وتجاوزوا حقَّ إلهيَّته في أحوال كثيرةٍ وأوقاتٍ وفيرةٍ⁽²⁾.

دلالة التقييد بالجارِّ والمجرور: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾:

تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ التَّقييدَ بالجارِّ والمجرور بقوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾؛ وذلك للإشعارِ بالإنكارِ عليهم عبادةِ آلهةٍ باطلةٍ لا ينبغي أن تُعْبَدَ لوضاعتها، ولجعلهم ذلك عِوَضًا عن

تَكَرُّرِ دعاءِ
المشركين
لآلهتهم الباطلة
دون جدوى

تفريطُ المشركين
في حقِّ عبادةِ ربِّ
العالمين

الإنكارُ على
القومِ عبادةِ
آلهةٍ باطلةٍ من
دون الله

(1) فاضل السامرائي، معاني النَّحو: 4 / 78.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22 / 186.

عبادة الإله الحق سبحانه، ويدلُّ التقييد أيضاً على مخاطبة المشركين بترك ما هم عليه من عبادة الأصنام؛ لأنَّهم جاوزوا الله ﷻ إلى عبادة غيره، وهذا مخالفٌ للفطرة السليمة، فضلاً عن الشرع الحكيم.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾:

تحقيرُ أصنام
المشركين
والتنبيه على
وضاعتها

أُضيفت كلمة (دون) إلى ضمير اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ لتحقير أصنامهم، ولبيان عجزها عن دفع الضرر عنهم أو نصرهم؛ لأنها لا تنفع، ولا تضر، ولا تملك لنفسها شيئاً، فضلاً عن أن تملك غيرها.

بلاغة المقابلة في الآية:

إثباتُ المُلْك
للرَّبِّ المستحق
للعادة، ونفيُه
عن الآلهة
الباطلة

تتضمن الآية فناً من فنون البديع، وهو المقابلة، حيث قابل النظم بين إثبات الملك للرَّبِّ المستحق للعبادة سبحانه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، وبين نفي الملك عن الآلهة الباطلة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، فبينهما تضادٌ يثير الذهن، ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حسناً وطرافةً، كما يقوِّي المعنى، إذ بضدها تتمايز الأشياء.

دلالة النفي بـ ﴿مَا﴾:

المبالغة في توكيد
انتفاء المُلْك عن
الأوثان

جاء النفي بحرف ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾؛ للتأكيد على نفي ملك الأوثان شيئاً ولو حقيراً، فينتفي عنها وصف الإلهية بطريق الأولى، وكلما كان السياق القرآني يحتاج إلى مبالغة في توكيد النفي جيء به منفياً بـ ﴿مَا﴾ النافية؛ لما تتميز به عن سائر حروف النفي من خصائص: كنفي الحال ونفي الجنس، متصلة بمنفيها أو منفصلة عنه، واقتران اسمها بـ ﴿مِنْ﴾ الدالة على الاستغراق والتوكيد وغيره⁽¹⁾.

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 253.

دلالة التعبير بـ ﴿يَمْلِكُونَ﴾ مادة وصيغة:

أوثر التعبير بالفعل ﴿يَمْلِكُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾؛ لأنَّ (مَلَكَ) أصلٌ صحيح يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، ثمَّ قيل: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيْءَ يَمْلِكُهُ مَلَكًا، والاسم المَلِكُ؛ لأنَّ يده فيه قوَّةٌ صحيحة، فالملكُ: ضبطُ الشَّيْءِ المتصرِّفِ فيه بالحكم، والملكُ كالجنس للملك، فكلُّ مَلِكٍ مَلِكٌ، وليس كلُّ مَلِكٍ مَلَكًا، ولذلك كان التعبيرُ بالفعل ﴿يَمْلِكُونَ﴾؛ للدلالة على نفي المملَكَةِ لأيِّ شيءٍ ولو كان حقيرًا، فضلًا عن التَّصرُّفِ فيه، وفي هذا توبيخٌ للمشركين في عبادتهم مَنْ لا يملك، ولا يتصرَّف.

كلُّ مَلِكٍ مَلِكٌ،
وليس كلُّ مَلِكٍ
مَلَكًا

بلغة جناس الاشتقاق بين ﴿الْمَلِكُ﴾ و﴿يَمْلِكُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ محسنٌ بديعيٌّ يسمَّى بجناس الاشتقاق، حيثُ توافقت كلمتا ﴿الْمَلِكُ﴾ و﴿يَمْلِكُونَ﴾ في الحروف الأصول، وهي (ملك)، وهو ملحقٌ بالجناس الاصطلاحي؛ لأنَّ كثيرًا ما يلحقُ بالتجنيس الكلمتان الرَّاجعتان إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المسامحة⁽¹⁾.

جناسُ الإلحاق
بما اتَّفَقَ في
أصل الاشتقاق

بلغة الاحتباك في الآية:

جَعَلَ بعضُ العلماءِ قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ من قبيل الاحتباك، ومفهومُه: أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويُحذفُ من كلِّ واحدٍ منهما مُقابله؛ لدلالة الآخر عليه⁽²⁾، ويتجلَّى ذلك في الآية: ذَكَرَ المَلِكُ أَوَّلًا دليلًا على حَذْفِهِ ثانيًا، والمَلِكُ ثانيًا دليلًا على حَذْفِهِ أَوَّلًا⁽³⁾.

الاستدلال
بالمذكور على
المحذوف على
جهة التَّقابُل

(1) العصام الأسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.

(2) الجرجاني، التَّعْرِيفَات، ص: 12.

(3) الخطيب الشَّربِينِي، السَّراج المُنِير: 3/ 320.

المبالغة في نفي
عجز الأوثان عن
الملك

دلالة التعبير بـ ﴿من﴾ في قوله: ﴿من قَطْمِيرٍ﴾:

أوثر التعبير بحرف الجر ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ من قَطْمِيرٍ﴾، وهو في هذا للمبالغة في النفي؛ لأنَّ حرف الجر ﴿من﴾ من معانيها الاستغراق، فتدخل لابتداء الجنس إلى انتهائه، واكتفى بذكر ﴿من﴾ عن ذكر (إلى)؛ لدلالة إحدى الغائتين على الأخرى⁽¹⁾، فأفاد التعبير بـ ﴿من﴾ المبالغة في استغراق انتفاء ملك الأوثان لأدنى شيء ولو كان حقيراً، وإذا انتفى أنها تملك شيئاً؛ انتفى عنها وصف الإلهية بطريق الأولى.

نكتة التعبير بـ ﴿قَطْمِيرٍ﴾ وتكبره:

الأوثان لا تملك
شيئاً، ولو لفافة
نواة

عبر بلفظ (قطمير) في قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ من قَطْمِيرٍ﴾؛ للدلالة على أنَّ الأوثان لا تملك شيئاً ولو قليلاً؛ لأنَّ المشهور في القطمير أنه لفافة النواة، ويضرب به المثل في القلة، كقوله: وأبوك يَخْصِفُ نَعْلَهُ متوركاً*** ما يملك المسكين من قطمير⁽²⁾.

سرُّ اختيار القطمير دون غيره:

عجز الأصنام
عن أدنى الأشياء

ذكر القرآن الكريم لفظ ﴿قَطْمِيرٍ﴾ دون غيره من الألفاظ التي يضرب بها المثل في القلة والحقارة، وهذه الألفاظ مجموعة في النواة، الفتيل؛ وهو ما في شقِّ النواة، والقطمير؛ وهو اللفافة، والنقير؛ وهو ما في ظهرها⁽³⁾.

وقد خصَّ القرآن الكريم كلَّ واحدٍ منها بذكره في السياق المناسب له؛ فذكر النقير في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝﴾ [النساء: 53]، وفي قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝﴾ [النساء: 124]، وذكر الفتيل في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ

(1) الطَّبَّي، فتوح الغيب: 5/ 444.

(2) لم أهتم إلى قائله، وهو في البحر المحيط: 7/ 305.

(3) السمين الحلي، الدرر للصون: 9/ 221.

فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ [النساء: 49]، وورد أيضًا في سورة النساء عند قوله: **﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾** [النساء: 77]، ومن خلال النظر في سياق هذه الآيات تجد أن كل لفظ جاء مناسبًا للسياق الذي ورد فيه؛ فلفظُ (النَّقِير) جاء مع بعض اليهود الذين أُعطوا نصيبًا من الملك، ومع ذلك فهم شديدا البخل؛ فلن يُؤتوا النَّاسَ منه شيئًا، ولو كان بمقدار النَّقْرة في ظهر النَّواة، وأمَّا مع أهل الإيمان، فجاءت لبيان العدل المطلق في عدم نقص المؤمنين من حسناتهم شيئًا، ولو كان بمقدار هذا النَّقِير، ومثل ذلك يقال في لفظ الفتيل، فقد جاء في سياقات نفي الظلم عمن هو من أهل الدنيا أو في الطريق إلى الآخرة، وذلك لما في الفتيل من معنى الامتداد في شقِّ النَّواة، فهو يحمل الأثر الدائم، وهو مناسبٌ لأهل الجنة في نفي الظلم، بالنقص من أعمالهم، ولو كان بمقدار الفتيل؛ وذلك لامتداد أثر أعمالهم من الدنيا إلى الآخرة، أمَّا اختيارُ لفظِ القطمير في سورة فاطر دون غيره مما سبق؛ فهو الأنسب؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ جاء في نفي امتلاك الأصنام شيئًا يمكن فصله عن النَّواة، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأصنام لا تملك شيئًا، ولا تخلُق شيئًا، ولو كان بمقدار هذه اللِّفافة الرقيقة التي تكون حول النَّواة.

توجيه التشابه اللفظي:

قال ﷺ في هذه السورة: **﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾**، وقال سبحانه في سورة الرعد: **﴿وَسَخَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** [الرعد: 2]، وجاء في سورة لقمان: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** [لقمان: 29]، وقال ﷺ في سورة الزمر: **﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسُ**

دَقَّةُ النَّظْمِ
الْقِرَاءَتِي فِي
اخْتِيَارِ حُرُوفِ
الْعَانِي

وَالْقَمَرَ كُلِّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٥﴾ [الزمر: 5]، فاختصَّ موضع لقمان بقوله: ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: 29] وما سواه إنما هو: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، والنُّكْتَةُ في ذلك اختلافٌ معنى الحرفين (إلى) و(اللام)، فالأوَّل دالٌّ على الانتهاء، والثَّاني دالٌّ على العلة، فقوله سبحانه: ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: 29]، معناه: لا يزال كلُّ من الشَّمْس والقمر جاريًا حتَّى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمَّى له، وإنَّما خصَّ ما في سورة لقمان بـ"إلى" التي للانتهاء؛ لأنَّ الآيات التي تكتنفها آياتٌ مُنبِّهَةٌ على النِّهاية والحشر والإعادة، وهو ما يُؤدِّن بتوقُّف حركة هذه الكائنات بعد انتهائها إلى الغاية التي أرادها الله تعالى؛ إعلانًا ببِدء حياةٍ أخرى ونظامٍ كونيٍّ آخر، ويؤكد ذلك ما ذُكر قبلها بقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، وبعدها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُوقًا رَبِّكُمْ وَآخِشًا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: 33]، فكان المعنى: (كلُّ يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تُكوِّر فيه الشَّمْسُ، وتتكدر فيه النُّجوم كما أخبر الله تعالى)، أمَّا باقي المواضع؛ فسياقها مناسبٌ للتعليل، فأوثر استعمال حرف اللام، فسياق سورة الملائكة إنَّما هو في ذكر النِّعم التي ابتداء بها في البرِّ والبحر؛ إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، وكذلك موضع الزُّمر وموضع الرِّعد، فالآيات التي تكتنفهما في ذكر ابتداء الخلق وابتداء جري الكواكب، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وهو قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ﴿٦٠﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٥٠﴾ [الزمر: 5-6]، فاختصَّ ما عند ذِكْرِ النِّهاية بحرفها، واختصَّ ما عند الابتداء بالحرف الدالُّ على العلة التي يقع الفعل من أجلها^(١).

(1) الإسكافي، دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغَرَّةُ التَّأْوِيلِ: 1057/01.

❖ الفروق المعجمية:

الملِك والملِك:

الملِكُ أصله: الشَّدُّ والرَّبطُ⁽¹⁾، ومنه: إِملاكُ العروس؛ لأنَّه عَقْدٌ ورَبَطٌ لِلنِّكاحِ⁽²⁾، أو هو: احتِواءُ الشَّيءِ والقُدرةُ عَلَيْهِ⁽³⁾، وهو راجِعٌ إلى الأوَّلِ، والملِكُ أصله: قَهَرٌ مَن تَنَأَتَى مِنْهُ الطَّاعةُ، أو هو التَّصَرُّفُ بالأمر والنَّهي في النَّاسِ⁽⁴⁾.

والمَلِكُ والملِكُ - على ما سبق تقريره - يرجعان إلى أصلٍ جامعٍ، وهو القوَّةُ في الشَّيءِ⁽⁵⁾.

ويظهر الاختلاف بين اللَّفْظَيْنِ أيضًا في اسمِ الفاعلِ المشتقِّ من كلِّ واحدٍ منهما، فالمَلِكُ: اسمُ فاعلٍ مشتقٌّ مِنَ الْمَلِكِ - بكسر الميم وفتحها - واللَّه هو المالك، أي: "مالكُ الأشياءِ كُلِّها ومُصَرِّفُها على إرادته، لا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْها شيءٌ؛ لأنَّ المالكَ في كلامِ الْعَرَبِ لِلشَّيءِ: هو المتصَرِّفُ فيه، القادرُ عَلَيْهِ"⁽⁶⁾، والمَلِكُ: اسمُ فاعلٍ مشتقٌّ مِنَ الْمَلِكِ - بضمِّ الميم -⁽⁷⁾ وهو مَن يَنْفِذُ أَمْرَهُ في مُلْكِهِ⁽⁸⁾، فأثر النُّظْمِ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ ﴿الْمَلِكُ﴾ في هذا السِّياقِ لكونِهِ سبحانه المتصَرِّفَ الوحيدَ في مخلوقاته.

القِطْمِيرُ والنَّقِيرُ والْفَتِيلُ:

تتشركُ هذه الألفاظُ الثلاثةُ في كونها أَجزاءَ النَّوَاةِ، كما تشترك في استعمالِها مثلاً في القِلَّةِ والحقارة، وتختلف في المعنى الدَّلاليَّ لكلِّ لفظٍ منها.

المَلِكُ من
الْمَلِكِ، والمَالِكُ
مِنَ الْمَلِكِ

دلالةُ أَجزاءِ
النَّوَاةِ على القِلَّةِ
والحقارة

(1) الرَّجَاجُ، تفسيرُ أسماءِ الله الحسنى، ص: 30.

(2) ابنُ عادل، الباب في علوم الكتاب: 1/ 184.

(3) ابنُ سيده، المُحكم والحيط الأعظم: 1/ 322.

(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُ للمصون: 1/ 48، والرَّاعِب، المفردات، ص: 774.

(5) ابنُ فارس، مقاييس اللُّغة: 5/ 351.

(6) الرَّجَاجِي، اشتقاقُ أسماءِ الله، ص: 43.

(7) السَّمين الحلبي، عمدة الحَقَّاء: 4/ 110.

(8) الرَّجَاجُ، تفسيرُ أسماءِ الله الحسنى، ص: 30.

فالفتيل: هو الخيط الأبيض في شقِّ النَّوَاةِ، ويروى عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أنه قال: "الفتيل ما يخرج من بين الإصبعين؛ إذا فتلهما".

والقِطْمِير: هو اللُّفَافَةُ، أي: الغشاء الرقيق الملتفُّ حول النَّوَاةِ.

والنَّقِير: النُّقْرَةُ في ظهر النَّوَاةِ، التي تنبت منها النَّخْلَةُ⁽¹⁾.

قال الأزهري: "وهذه الأشياءُ تُضْرَبُ كُلُّهَا أَمْثَالاً لِلشَّيْءِ التَّافِهِ الْحَقِيرِ الْقَلِيلِ"⁽²⁾، وإذا كان المقصودُ في الآية ضَرْبَ المَثَلِ بأدنى شيءٍ يُمْتَلِكُ، وذلك يتحقَّقُ في الخيط، لكونه جِرمًا مُستَقِلًّا يمكن أن يُعْزَلَ، وَيُؤْخَذَ، أي: يُمْتَلِكُ، وكذلك الفَوْفَةُ: الجَبَّةُ، في حين أنَّ الشَّقَّ حالٌ في جِرمِ النَّوَاةِ، لا يُمْلِكُ وحدهُ، فالرَّاجح: أنَّ المقصودَ به في الآية هو ذلك الخيطُ الممتدُّ في شَقٍّ بين قَمْعِ النَّوَاةِ وشَقِّهَا - وهو ما قاله المفسِّرون - أو الفوفة، وكلاهما صالحٌ للتَّعبيرِ عن المعنى المقصود⁽³⁾.

(1) السَّمين الحليّ، الدُّرُّ للصون: 221 / 9.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: 206 / 14.

(3) جبل، العجم الاشتقاقِيّ للؤصل: (ملك).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سبأ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سبأ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 46، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-99-0

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 46: المجلد السادس والأربعون، سورة سبأ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-99-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»